العبادة

العبادة في الإسلام ، ما حقيقتها ؟ وما غاياتها ؟ وما خصائصها ؟ .

العبادة علة وجودنا ، وسر سعادتنا في الدنيا ، وثمن جنة ربنا في الآخرة .

قال تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

إنها غاية الخضوع لأمر الله ، وغاية محبته ، فمن أطاعه ، ولم يحبه ، لا يكون عابداً له ، ومن أحبه ، ولم يخضع له ، لا يكون عابداً له .

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال شنيع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

في العبادات **جانب سلوكي** ، إنه الطاعة الطوعية والانقياد التام إلى الأمر التكليفي فعلاً وتركاً ، وفي العبادة **جانب نفسي** ،

هو الحب الغامر للمنعم الذي أنعم ، أنعم بنعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهدى والرشاد .

لابد لهذه الطاعة الطوعية من **معرفة يقينية** تسبقها ، كما أنه لابد لهذه الطاعة الطوعية من **سعادة حقيقية** تفضي إليها ، تلك السعادة التي خلق الإنسان من أجلها ، قال تعالى :

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود : ١١٩] .

السؤال المهم ، **لماذا فرض الله علينا عبادته وطاعته ؟** وهو الغني عنا ! إنه تبارك اسمه لا تنفعه عبادة من عبده ، ولا يضره إعراض من صدّ عنه ، ولا يزيد في ملكه حمد الحامدين ، ولا ينقصه جحود الجاحدين ، هو الغني ونحن الفقراء إليه ، هو الودود الكريم ، والبر الرحيم ، لا يأمرنا إلا بما فيه خيرنا وصلاحنا .

❊ ❊ ❊

إذا انتقلنا من تعريف العبادة إلى غاياتها العظيمة ، وأهدافها النبيلة نجد :

أولاً :

أن العبادة **غذاء النفس** ، فكما أن الجسم غذاؤه الطعام والشراب فالنفس التي بين جنبيك غذاؤها العبادة ، فليس الإنسان

هو هذا الغلاف المادي الذي نحسه ونراه ، ولكن حقيقة الإنسان هو ذلك الجوهر النفيس الذي صار به سيد المخلوقات ، هذا الجوهر الذي يحيا ويسعد بذكر الله ، والإقبال عليه ، ويهلك ويشقى بالغفلة والبعد عنه ، قال تعالى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩-١٠] .

إن القلب الإنساني دائم الشعور بالحاجة إلى الله ، وهو شعور أصيل ، لا يملأ فراغه شيء في الوجود ، إلا حسن الصلة برب الوجود ، وهذا هو جوهر العبادة .

ثانياً :

العبودية الحقة لله سبيل إلى **الحرية الحقيقية** ، إن العبودية الخالصة لله جل جلاله هي عين الحرية ، وسبيل السيادة الحقيقية ، فهي وحدها تعتق القلب من رق المخلوقين ، وتحرره من الذل والخضوع لكل ما سوى الله من أنواع الآلهة والطواغيت ، التي تستعبد الناس ، وتسترقهم أشدّ ما يكون الاسترقاق والاستعباد ، ذلك أن في قلب الإنسان حاجة ذاتية إلى رب ، إلى إله ، إلى معبود يتعلق به ، ويسعى إليه ، ويعمل على رضاه ، ويلتجىء إليه ، ويلوذ بحماه ، لأن الإنسان خلق ضعيفاً ، ليفتقر في ضعفه ، فيسعد في افتقاره ، ولو خلق قوياً لاستغنى بقوته ، فشقي في استغنائه . فإذا لم يكن هذا المعبود هو الله الواحد الأحد ، تخبط في عبادة آلهة شتى ، وأرباب آخرون

مما يرى ومما لا يرى ، ممن يعقل ومما لا يعقل ، مما هو موجود وما ليس بموجود إلا في الوهم والخيال ، يقول أحد العلماء : **كل من استكبر عن عبادة الله لابد من أن يعبد غيره ،** يسترقه ويذلّه ، ولن ينجو القلب من استعباد المخلوقين واسترقاقهم إلا أن يكون الله خالق السماوات والأرض ، ورب العالمين هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه ، ولا يستعين إلا به ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه ، ولا يكره إلا ما يبغضه ويحرمه ، ولا يوالي إلا من يواليه ، ولا يعادي إلا من يعاديه ، ولا يحب إلا لله ، ولا يبغض إلا لله ، ولا يعطي إلا لله ، ولا يمنع إلا لله ، وكلما قوي إخلاصه لله كملت عبوديته له ، واستغناؤه عن خلقه ، وبكمال عبوديته لله تكمل براءته من الكبر والشرك .

ثالثاً :

من أهداف العبادة ، أنها **ابتلاء إلهي** ، فالحياة الدنيا التي نحياها طالت ، أو قصرت ، ليست هي الغاية ، ولا إليها المنتهى ، إنها حياة دنيا فانية ، جعلها الله إعداداً لحياة عليا باقية ، وشاءت حكمة الله جل جلاله أن يركب في الإنسان عناصر مزدوجة ، بعضها يسمو به وبعضها يهوي به ، ففيه العقل والإرادة ، وفيه الغريزة والشهوة ، والحظوظ التي منحه الله إياها كالمال والجمال والقوة والذكاء حيادية ، يمكن أن يجعلها الإنسان سلماً يرقى بها ، ويمكن أن يجعلها دركاتٍ يهوي بها ، تسعده أو تشقيه ، تكون سبباً لدخوله الجنة ، أو سبباً لدخوله

النار ، لقد أودعت فيه الغرائز والشهوات ، ومنح نعمة العقل والإرادة ، ثم رسم له منهج من عند خالقه ، كُلف أن يسير عليه ، وأن يطبق تفاصيله ، فإما أن يحكم عقله ، ويستعمل إرادته ، فيطبق منهج ربه ، فيسعد في الدنيا والآخرة ، وإما أن يحكم غريزته ، ويستجيب لشهوته ، فيعرض عن منهج ربه ، فيشقى في الدنيا والآخرة ، قال تعالى :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

[الكهف : ٧] .

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾

[الإنسان : ٢] .

رابعاً :

العبادة حق الله على عباده ، روى البخاري ومسلم عن معاذ بن جبل قال : « **كنت رديف النبي ﷺ فقال لي : يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حق الله على العباد أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئاً** »[١] .

وقد ورد في الأثر القدسي : « إني والإنسَ والجنَّ في نبأ عظيم ، أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويشكر سواي ! »[٢] . وفي حديث قدسي آخر عن علي بن أبي طالب : « خيري إلى العباد

---

(١) رواه البخاري ٦/ ٤٤ ، ومسلم رقم٣٠/ ٤٩ .

(٢) رواه البيهقي والحكيم الترمذي عن أبي الدرداء.

نازل ، وشرهم إلي صاعد ، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم ، ويتبغضون إلي بالمعاصي ، وهم أفقر شيء إلي »[1] .

فليس بمستَنكَرٍ أن يكون لله علينا حق عبادته وحده ، بل المستنكر أن يكون غير هذا ، المستنكر أن نعبد ما دون الله ، أو من دون الله ، فنؤدي الحق لغير أهله ، إننا لم نكن شيئاً مذكوراً ، خرجنا من ظلمة العدم إلى نور الوجود ، ثم كنا نوعاً مكرماً من الخليقة ، خُلقنا في أحسن تقويم ، وصورنا في أحسن صورة ، علمنا البيان ، أوتينا العقل والإرادة ، سخرت الكائنات لخدمتنا ، فالعبادة نوع من الخضوع لايستحقه إلا المنعم بأعلى أنواع النعم ، كنعمة الحياة ، والرزق والهداية ، وأقل القليل من العبادة أكبر من أن يستحقه أي مخلوق كائناً من كان ، لذلك لا يستحق العبادة إلا الله ، العبادة حق الله على عباده .

خامساً :

العبادة طلب للجنة ونجاة من النار ، لا يضير العابد ، ولا يقلل من قيمة عبادته ، أن تكون عبادته طلباً لثوابه ، وخوفاً من عقابه ، طلباً لجنته ، وهرباً من ناره ، لقد وصف الله تعالى صفوته من خلقه ؛ وصف الأنبياء والرسل ، والصديقين والصالحين بأنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ، ولو لم يكن هذا مطلوباً لما وصف الله الجنة للعباد وزينها لهم ، وأخبرهم عن تفصيل ما تصل إليه عقولهم منها ، ولما وصف لهم النار ،

---

(١) رواه الديلمي والرافعي.

وخوفهم منها ، وأخبرهم عن تفصيل ما تصل إليه عقولهم منها ، والحقيقة أن الجنة ليست اسماً لمجرد الأشجار والفواكه والثمار والطعام والشراب والحور العين والأنهار والقصور ، بل هي اسم لدار النعيم المطلق الكامل ، ومن أعظم نعيم الجنة النظر إلى وجه الله الكريم ، وسماع كلامه ، وقرة العين بالقرب منه ، وبرضوانه ، فأيسر اليسير من رضوانه ، والنظر إلى وجهه الكريم أكبر من الجنان وما فيها ، قال تعالى :

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة : ٢٢-٢٣] .

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة : ٧٢] .

سادساً :

عبادة المؤمن لربه **نوع من الأخلاق** لأنها من باب الوفاء لله عز وجل ، والشكر لنعمه ، والاعتراف بالجميل ، والتوقير لمن هو أهل للتوقير ، والتعظيم ، وكلها من مكارم الأخلاق ، عند الفضلاء من الناس ، لذلك نجد القرآن الكريم يعقب على أوصاف المؤمنين ، القانتين ، المطيعين بقوله :

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [البقرة : ١٧٧] .

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات : ٤٩] .

﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم : ٣٧] .

لأن أعلى مراتب الصدق أن يكون الإنسان صادقاً مع الله ، شاكراً لأنعمه ، وفياً له بخدمة خلقه ، أخلاق المؤمن لون من عبادته لربه ، أخلاقه أخلاق ربانية ، باعثها الإيمان بالله ،

وحاديها الرجاء في جنته وغرضها رضوان الله ومثوبته ، فهو يصدق الحديث ، ويؤدي الأمانة ، ويفي بالعهد ، وينجز الوعد ، ويغيث اللهفان ، ويعين الضعيف ، ويرحم الصغير ، ويوقر الكبير ، ويصبر في البأساء والضراء وحين البأس .

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان : ٩] .

أخلاق المؤمن عبادة من زاوية أخرى ، وهي أن مقياسه في الفضيلة والرذيلة هو أمر الله ونهيه ، فالضمير وحده ليس بمعصوم ، وكم من أفراد وجماعات رضيت ضمائرهم بقبائح الأعمال ، والعقل وحده ليس بمأمون ، لأنه محدود بالبيئة والظروف ، ومتأثر بالأهواء والنزعات ، والعرف وحده لا ثبات له ولا عموم ، لأنه يتغير من جيل إلى جيل وفي الجيل الواحد من بلد إلى بلد ، وفي البلد الواحد من إقليم إلى إقليم ، لذلك التجأ المؤمن إلى المصدر المعصوم ، المأمون الذي لا يضل ولا ينسى ، ولا يتأثر ولا يجور ، ذلك هو حكم الله ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون .

سابعاً :

العبادة هي الأداة الوحيدة **لتربية الضمير** ، أو هي السبب الوحيد لمكارم الأخلاق الأصيلة التي لا تنبع من المصالح ، ولا تتأثر بها ، فالله جل جلاله أصل الخير والحق والجمال ، والإنسان من خلال عبادته ، واتصاله بربه ، يشتق من مكارم الأخلاق ، ما يتناسب مع حجم استقامته ، وعمله الصالح

وإخلاصه وصدقه ، فأشد البشر اتصالاً بربه أعلاهم خلقاً ومنزلة
﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر : ٩٢-٩٣] .

لذلك ننكر أن يقوّم الإنسان فلا يُجعل لعبادته وزنٌ في تقويمه وتقديره ، وهذا ما حذر منه النبي ، ﷺ ، وتنبأ به حينما قال :

« **يأتي على الناس زمان يقال للرجل فيه : ما أظرفه ما أعقله ما أجلده ، وما في قلبه مثقال حبة من إيمان** »[1] .

إننا نقرأ القرآن الكريم فنجد صورةً تفصيلية للشخصية المؤمنة :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون : ١-١١] .

انظر كيف جعل الله أول أوصاف المؤمنين ، الخشوع في الصلاة وآخر أوصافهم المحافظة عليها ، وصفهم بفعل الزكاة ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

وهي عبادة مع الفضائل الخلقية الأخرى ، إعراضهم عن اللغو ، عفتهم ، حفظهم للأمانة ، رعايتهم للعهد .

* * *

بعد أن انتهينا من أهداف العبادة الكبرى ، وغاياتها ، ننتقل إلى خصائصها وشروطها .

أولاً :

لا يعبد إلا الله وحده ، إن توحيد الله ، وعبادته هي مضمون الرسالات السماوية كلها ، قال تعالى :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

بل إن سرّ الإسلام ـ على سعة تعاليمه ـ يتجلى في دستوره الخالد الذي هو القرآن الكريم ، وسرّ هذا الدستور يتركز في فاتحته أم القرآن الكريم ، والسبع المثاني ، وسرّ هذه الفاتحة يتلخص في هذه الآية الكريمة : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

أي لا نعبد أحداً غيرك ، ولا نستعين بكائنٍ سواك ، فالعبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم ، لذلك يعدّ الشرك هواناً لا يليق بكرامة الإنسان ، وأي هوان يصيب الإنسان ، حينما يعبد ما سخر له ، من حجر ، ومدر ، وشمس ، وقمر ، وجن ، وبشر ، كيف يسجد الإنسان لها ، وهي له مسخرة ، وفي

مصلحته وخدمته مذللة ، كيف يسجد لها وقد سجدت له الملائكة ، بأمر الله ، تحية له ، واحتفاءً به ؟ ! وقد سد الإسلام كل ذريعة تفضي إلى الشرك فقد روى أحمد والبخاري في الأدب المفرد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال للنبي ﷺ ، ما شاء الله وشئت فقال عليه الصلاة والسلام « **أجعلتني لله نداً ؟ ! قل : ما شاء الله وحده** »[1] .

وروى الطبراني أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، فقال النبي ﷺ : « إنه لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله جل جلاله »[2] .

ثانياً :

لا وسطاء بين الله وخلقه ، بالمعاني المستنبطة من الممارسات الخاطئة ، اعتقاد المسلم في الله يقوم على حقيقتين ؛ أنه تعالى فوق عباده علواً ، وقهراً ، وسلطاناً ، وتصرفاً ، لا يشبهه شيء ، ولا يحكم عليه شيء ، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد ، وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير ، ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ، والخلق جميعاً عبيد في قبضته ، لا يملكون لأنفسهم ـ فضلاً عن غيرهم ـ ضراً ، ولا نفعاً ، ولا موتاً ، ولا

---

(١) حديث صحيح .

(٢) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٥٩ .

حياةً ، ولا نشوراً ، وهو ـ مع عظمته ، وعلو شأنه ـ قريب من خلقه ، بل هو معهم أينما كانوا في جلوتهم ، وفي خلوتهم ، يسمع ويرى ، ويرعى ، ويهدي ، ويعطي من سأله ، ويجيب من دعاه ، هو تعالى قريب في علوه ، عليّ في دنوه ، قد جمع الله تعالى بين العظمة والعلو ، وبين القرب والدنو في آية واحدة ، قال تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤] .

والله أجل وأعلى من أن يكون له وسطاء بينه وبين خلقه ، يعلمونه من أمر الناس ما لم يُكن يعلم ، ويوجهون إرادته إلى ما لم يكن يريد ، وهو سبحانه وتعالى أكرم وأجل من أن يدع رحمته وجنته بأيدي أناس يوزعونها بالأسهم والقراريط ، فله وحده الخلق والأمر ، وله وحده الملك ، وله وحده العقوبة والعفو ، وهو على كل شيء قدير .

ثالثاً :

العبادة المقبولة عند الله تعالى ليست هي الشبح الخالي من الروح ، إنما **تصاحبها النية الصادقة ، ويسري فيها روح الإخلاص** سريان العصارة في الشجرة الناضرة ، فتؤتي في النفس أكلها ، وتثمر في الخلق والسلوك ثمرتها ، روى الطبراني بإسناد صحيح ، قال : كان فينا رجل خطب امرأةً يقال لها أم قيس ، فأبت أن

تتزوجه حتى يهاجر إلى المدينة ، فهاجر إلى المدينة وتزوجها ، فكنّا نسميه مهاجر أمّ قيس[١] .

قال عليه الصلاة والسلام :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىءٍ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه »[٢] .

قال الحافظ في الفتح : « قد تواتر النقل عند الأئمة في تعظيم قدر هذا الحديث ، فليس في أخبار النبي ﷺ شيء أجمع وأغنى وأكثر فائدةً من هذا الحديث » . واتفق الشافعي وابن حنبل وأبو داود والترمذي على أنه ثلث الإسلام ، وقال الشافعي : يدخل هذا الحديث في ستين باباً من أبواب العلم .

اللهم إنا نعوذ بك أن نقول قولاً فيه رضاك نلتمس به أحداً سواك .

رابعاً :

لا يكفي أن يقصد المسلم بعبادته وجه الله وحده ، وألا يتجه إلى أحد غيره ، بل لا بد من أن تكون عبادة الله بالصورة التي شرعها الله ، وبالطريقة التي ارتضاها ، قال تعالى :

---

(١) قال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح ، وقال ابن حجر : إسناده صحيح على شرط الشيخين (انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب) .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه .

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف : ١١٠] .

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : **اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً** .

وقال الفضيل بن عياض ، في قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ قال : **أخلصه وأصوبه** ، قيل : يا أبا علي ما أخلصه وما أصوبه ؟ قال :

« **إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لا يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لا يقبل** » ، والخالص ما ابتغي به وجه الله ، والصواب ما وافق السنة ، وجماع الدين أصلان أن **لا نعبد إلا الله وأن لا نعبده إلا بما شرع** ، فقد ورد في صحيح مسلم :

« **من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد ، ومن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد** »[١] .

فالله ـ وحده ـ هو المشرع ، والنبي ـ وحده ـ هو المبلغ ، ونحن المتبعون ، وفي الاتباع الخير كله ، قال تعالى :

﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه : ١٢٣] .

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة .

وفي أول خطبة خطبها سيدنا الصديق رضي الله عنه :

قال : « إنما أنا متبع ولست بمبتدع » .

إن الابتداع في الدين ، هو الكوة التي تسلل منها الشيطان إلى عامة المتدينين ، أفسد عليهم دينهم ، وحياتهم ، خرّب عليهم عقائدهم وعباداتهم ، فتح عليهم أبواباً من الفساد لم يستطيعوا بعد إغلاقها ، فمن طريق الابتداع ، زحف الشرك ، ودخلت الوثنية على أمم أشركوا بالله ، ما لم ينزل به سلطاناً ، وعبدوا من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ، قائلين هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، ومن طريق الابتداع جاء الغلو في الدين ، والتنطع فيه ، ودخل الحرج ، والعنت ، والآصار والأغلال ، على أتباعه ، واخترع الناس ألواناً شتى من العبادات ، كلها عنت وإرهاق ، ومن طريق الابتداع ، حرم الغلاة ما أحل الله من الزينة والطيبات ، أهملوا الدنيا باسم الدين ، وخربوا العمران بدعوى الإيمان ، وعذبوا الأجساد بدعوى تصفية الأرواح .

ومن طريق الابتداع في الدين حدثت التحريفات الهائلة ، والانحرافات الشنيعة ، وقع فيها رجال ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

إن مجال الابتداع والابتكار ليس هو الدين ، الدين توقيف من الله ، يجب أن يبقى مصوناً ، منزهاً عن عبث العابثين ، وتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

أما مجال الابتداع الحقيقي ، والابتكار ، والتحديث ، والتجديد هو الدنيا وشؤونها ، وما أحوج المسلمين إلى تطوير دنياهم ، وتنويع سبل رزقهم ، وتنمية دخولهم ، واستغلال ثرواتهم ، التي أودعها الله في أرضهم ، وتصنيعها بأيديهم ، ما أحوجهم إلى أن يأكلوا مما يزرعون ، وأن يلبسوا مما ينسجون ، وأن يستخدموا من الآلات ما كان من اختراع عقولهم ، وصنع أيديهم ، ليتحرروا من تحكم الآخرين بهم .

مر عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، ببلدة من رعاياه ، فوجد فيها أن الفعاليات المعيشية ليست بأيدي أبناء هذه البلدة ، فوبخهم ، وعنفهم ، وقال لهم : **كيف بكم وقد أصبحتم عبيداً عندهم** . لقد أدرك هذا الخليفة الراشد ـ ببعد نظره ـ أن المنتج هو القوي ، وأن المستهلك هو الضعيف ، وأن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف ، وقد أمسك رسول الله ﷺ بيد ابن مسعود وكانت خشنة من العمل ، رفعها أمام أصحابه ، وقال : « **إن هذه اليد يحبها الله ورسوله** » .

* * *

الجهة الصانعة ، هي وحدها ، ينبغي أن تُتبع تعليماتها في استعمال الآلة ، وصيانتها وفي تحسين مردودها ، لأنها الخبيرة بما تصنع ، ولا ينبئك مثل خبير ، والعبادة ـ في جوهرها ـ انقياد طوعي ، واتباع تفصيلي لمنهَج الله خالق الناس ، ورب الناس ،

وإله الناس ، وهذا المنهج ـ منهج الله عز وجل ـ مرتبط أشد الارتباط بسنن الخلق وقوانين الكون ، فالعلاقة بين الأمر الإلهي ونتائجه ، وبين النهي ونتائجة علاقة علمية ، أي علاقة سبب بنتيجة ، من بنود هذا المنهج أن الله ـ جل جلاله ـ حرم تحريماً مطلقاً تناول لحم الميتة والدم ، فلما أطعم البقر في بلاد أخرى الدماء ، ولحوم الجيف مسحوقةً ومجففة أصيبت بمرض خطير في دماغها اسمه الاعتلال الدماغي الإسفنجي ، من أبرز أعراضه ، عدم التحكم العصبي ، والسلوك العدواني ، لذلك سمي هذا المرض اختصاراً **بجنون البقر** ، والأخطر من هذا أن هناك احتمالاً كبيراً ، انطلق من حالات عدة ، يعكف الباحثون على دراستها ، بغية التحقق من انتقال المرض من البقر إلى البشر ، من طريق تناول اللحوم المصابة ، ودهونها ، وشحومها ومسحوق عظامها ، ومنتجاتها ، وألبانها ، وأحشائها ، ومخلفاتها والأعلاف المصنوعة منها ، ومواد التجميل المحضرة من دهونها ، ومن أبرز أعراض هذا المرض في بني البشر ، قلق ، واكتئاب ، وفقدان للذاكرة ، وفقْد التناسق العضلي ، وفقد التوازن الحركي ، والعمى ، وفقد النطق ، ثم الوفاة بعد عام من ظهور الأعراض .

والعوامل المسببة للمرض بالغة الصغر ، لم تعرف حتى الآن ، ذات دور حضانة طويل ، يمتد إلى عدة سنوات ، وليس له مظهر التهابي مناعي ، هذه المسببات تتحمل حرارة تصل إلى مئة وعشرين درجة مئوية لمدة ساعة كاملة ، هم في تلك البلاد

مضطرون لإحراق أحد عشر مليون بقرة ، قيمتها ثلاثة وثلاثون ملياراً من عملتهم .

لقد صممت البقرة لتأكل علفاً نباتياً ، فلما أطعموها ما حرم الله تناوله ميتة ودماً أصيبت بالجنون ، وما جنون البقر إلا من جنون البشر ، حيث خالفوا تعليمات الصانع ، قال تعالى : دققوا في هذه الآية . . .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس : ٧١ـ٧٣] .

إنهم يغيرون خلق الله والأولى أن يتبعوا العليم الخبير ، قال تعالى :

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم : ٤١] .

وقد اتخذت ـ والحمد لله ـ في بلدنا الطيب احتياطات بالغة ، لتمنع وصول هذه المشكلة إلينا .

* * *